المجلة التاريخية الجزائرية
ISSN: 2572-0023 / EISSN: 2716-9065
https://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/664
المجلد:06، العدد:01 (2022)، ص268-279

أبو الفضل بن النحوي (ت513هـ) وتأثيره في الحياة العلمية والسياسية ببلاد المغرب (434-513هـ/1042-1116م)

Abual-Fadl Ibn al-Nahwi (d 513Ah) and his impact on scientific and political life in the Maghreb (434-513ah/1042-1116ad)

بن علية قراني*
مخبر الدراسات التاريخية المتوسطية عبر العصور
جامعة المدية (الجزائر)
aminegr1977@gmail.com

توفيق مزاري عبد الصمد
جامعة المدية (الجزائر)
mazaro64@yahoo.com

معلومات المقال
تاريخ الارسال:
2021/10/14
تاريخ القبول:
2022/01/28
الكلمات المفتاحية:
✓ أبو الفضل ابن النّحوي
✓ التعليم
✓ التأليف
✓ السلطة المرابطية

الملخص:

يعد أبو الفضل بن النحوي (ت513هـ) من الشخصيات البارزة بالغرب الإسلامي، اكتسبت ثقافة واسعة في العلوم النقلية، مكنته من المساهمة في الحياة العلمية بالحواضر التي حل بها، من خلال مزاولة التعليم بالمساجد، وتدريسه لعلمي الفقه والاصول، إضافة إلى علم الكلام (التصوف). وتفاعل ابن النحوي مع حادثة الإحراق لكتاب الإحياء لأبي حامد الغزالي (ت505هـ)، في عهد علي بن يوسف بن تاشفين، وأصدر فتوى بعدم لزوم ذلك، على غرار الفقهاء الرافضين لها، مما جعله يدخل في صراع سلمي مع السلطة المرابطية التي ضايقته، وأجبرته على العودة إلى القلعة.

Article info
Received:
14/10/2021
Accepted:
28/01/2022
Key words:
✓ Abu al-Fadl Ibn al-Nahwi.
✓ L'Education
✓ authorship
✓ Almoravid authority

Abstract:

Abu al-Fadl ibn al-Nahwi (died 513 AH) is considered one of the most prominent personalities in the Islamic West. He acquired a wide culture in the sciences of transportation, which enabled him to contribute to the scientific life in the cities in which he settled, through practicing education in mosques, and teaching the scholars of jurisprudence and principles, in addition to the science of theology (sufism). Ibn al-Nahawi interacted with the burning incident of the Book of Revival by Abu Hamid al-Ghazali (d. 505 AH), during the era of Ali bin Yusuf bin Tashfin, and issued a fatwa that it was not necessary, similar to the jurists who rejected it, which made him enter into a peaceful conflict with the Almoravid authority that annoyed him, and forced him to Return to the castle.

*المؤلف المرسل

مقدمة

أقام الفقهاء دولة المرابطين، وتحكموا في الجهاز السياسي والإداري، وأصبحوا أصحاب سلطة ونفوذ، فتولوا المناصب الهامة كالوزارة والقضاء والحسبة والكتابة، ومنحهم الأمير المرابطي ثقته المطلقة، إذ يستشيرهم، ويأخذ برأيهم في جميع الأمور، فاستغل بعضهم ذلك في خدمة مصالحه والحفاظ على مركزه. ورغم أنّ البعض منهم تحاشى التقرب من الحاكم وحتى التصادم معه، فإنهم لجأوا إلى الاهتمام بالأُمور الدينية والعلمية في الوسط الاجتماعي، إلاّ أنّ الدافع الديني وإرضاء للخالق جعلهم يتدخلون بطريقة سلمية في إطار الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لتصحيح فتاوى فقهية وقرارات سياسية خاطئة، رأوا فيها ضررا على الحاكم والمجتمع، ومن أمثال هؤلاء أبو الفضل ابن النّحوي.

وتتمحور الإشكالية التي يطرحها هذا المقال حول: **مدى تأثير أبو الفضل بن النحوي في الحياة العلمية والسياسية ببلاد المغرب؟** وللإجابة عن الإشكالية الأساسية تمّ طرح تساؤلات فرعية، والتي سيتم إدراجها كمحاور رئيسية في الموضوع، من بينها: **من هو أبو الفضل بن النّحوي؟ وما تأثيره العلمي ببلاد المغرب؟ وما الحدث الذي دفع به للبروز على الساحة السياسية؟**

لذلك أردنا من خلال هذه الورقة البحثية إبراز شخصية أبو الفضل بن النحوي، وجوانب من حياته، ونشاطه العلمي ومؤلفاته، ودوره السياسي ببلاد المغرب خاصة في عهد المرابطين.

1. الترجمة لأبي الفضل بن النّحوي

1.1. اسمه ونسبه

هو يوسف بن محمّد بن يوسف المعروف بابن النحوي (السيوطي، ج. 1965: 362/2)، ويكنى أبا الفضل (ابن القاضي، أ.1973: 552)، من قلعة بني حماد، وأصله من توزر (ابن مريم، أ. 1908: 309) (ابن الزيات، أ. 1997: 95) (ابن القاضي، أ.1973: 552) ولد سنة 433هـ/1041م (الزركلي، خ. 1980: 249/8) (نويهض، ع. 198: 329) (التنبكتي، أ. 1989: 622).

2.1. تكوينه العلمي

أغفلت المصادر التاريخية (التراجم والطبقات) فترة نشأة الفقيه أبي الفضل بن النحوي (ت513هـ) وتكوينه العلمي، باستثناء تلك الإشارات لمشايخه وتلامذته، حيث تتلمذ بإفريقية على يد أئمة كبار (الطمار، م. 2010: 203) أمثال أبي الحسن اللخمي، الذي أخذ عنه صحيح البخاري، وأبي عبد الله المازري، وأبي زكريا الشقراطسي (هو أبو محمد عبد الله بن يحيى بن علي بن زكريا الشقراطسي، نسبة إلى قلعة بالقرب من قفصة، وهو من أبناء توزر وفحول نبغائها، أخذ العلوم بالقيروان، ألف قصيدة الشقراطيسية في مدح النبي ﷺ، توفي سنة 466هـ/ 1073م، (مخلوف، م. 2002: 173/1) وعبد الجليل الربعي وغيرهم (التنبكتي، أ. 1989: 622) (ابن الزيات، أ. 1997: 96) (ابن مريم، أ. 1908: 299)

أخذ بحظ وافر من علم أصول الدين وأصول الفقه، وأصبح عارفا بهما (ابن القاضي، أ. 1973: 553)، واتّبع طريق السلف الصالح (ابن عبد الملك، أ. 2012: 353/5)، وتمكن من علم الكلام الذي أخذه من كتاب إحياء علوم الدين للإمام أبو حامد الغزالي، حتى أصبح يشبهه في بلاد المغرب علما وعملا، كل ذلك مكنّه من الاجتهاد والنظر في المسائل الفقهية (ابن مريم، أ. 1908: 209).

3.1. صفاته

1.3.1. حلمه

من صفات العلماء التواضع ويظهر ذلك في شخصية الفقيه أبي الفضل بن النّحوي (ت513هـ)، وخلقه الرفيع، فكان يكظم غيظه ولا يحرج أحداً، ومثال ذلك ما حدث له عندما دخل عليه أحد طلابه بعد أن ألقى عليه السلاّم، فأراق الحبر فجأة على ثوبه الأبيض، فخجل الطالب (ابن الزيات، أ. 1997: 97)، فردّ عليه شيخه بتواضع قائلا: "**كنت أقول أيّ لون أصبغ به الثوب، فالآن أصبغه حبرياً، فنزعه وبعث به إلى الصبّاغ**" (ابن مريم، أ. 1908: 304).

ووصل به الحلم إلى الالتزام بالصمت وعدم الرد على الذين أخطأوا في حقه، مثل ما وقع له مع أبي محمد بن عصمة مفتي وقاضي قلعة بني حماد، إذ مرّ عليه أبو الفضل بن النّحوي ولم يلق عليه السلاّم لانشغاله بالذكر، هذا التصرف غير المقصود أزعج ابن عصمة، فاستدعاه ولامه وعاتبه وأغلظ له القول، إلاّ أنّ رد ابن النّحوي كان حليما وأخلاقيا دون أن يواجهه أو يجادله (ابن الزيات، أ. 1997: 100-101) (ابن مريم، أ. 1908: 303).

2.3.1. ورعه

كان أبو الفضل بن النّحوي (ت513هـ) شديد الخوف من الله تعالى في غالب أحواله، كثير الحضور مع الله تعالى، يتحرى الحلال ولا يقبل من أحد شيئا مخافة وقوعه في الحرام، بل كان يسترزق من بلدته توزر (ابن مريم، أ. 1908: 301).

ومن شدّة ورعه وخوفه من الله تعالى أنّه لمّا يدخل في الصّلاّة لا يشعر بما يحدث حوله، خاصة في داره التي يكثر فيها اللّغط وتتعالى فيها الأصوات، ولاحظ ذلك ضيف نزل عنده، فتدخل الضيف وطلب من ابن الفقيه توفير جو السكينة وجبر خاطر الفقيه، فأجابه أنّه لا يشعر بذلك لخشوعه في الصلاة، واتصاله بالخالق وانقطاعه عن الخلق (ابن الزيات، أ. 1997: 96-97) (ابن مريم، أ. 1908: 301).

3.3.1. صلاحه

اتّصف أبو الفضل بن النحوي (ت513هـ) بصلاحه فكان مستجاب الدعوة (القرافي، ب. 2004: 259) حتى صار الناس يتعوذون منه (ابن القاضي، أ. 1973: 553)، فلما هاجمه ابن دبوس (هو أبو محمد عبد بن دبوس، الشيخ الصالح، إمام المسجد الجامع، جامع القرويين من مدينة فاس المحروسة كان مجاب الدعوة، توفي بفاس(الفاسي، أ. 2002: 2/ 208) (ابن القاضي، أ. 1973: 442) قاضي فاس، وعزم على الخروج

منها، قام تلك الليلة، وفي صبيحتها أكملها بسجدة واحدة دعا في آخرها على ابن دبوس، قائلا: اللهم عليك بابن دبوس، فأصبح ميتا(ابن قنفد، أ. 1965: 108).

كما دعا أبو الفضل على عبد الله بن بسام أحد رؤساء سجلماسة، والذي حرمه من تلقين علمه، قائلا: "**أمّتّ العلم، أماتك الله ها هنا، فاستجيبت دعوته، وقتل عبد الله بن بسام في ذلك المكان في صبيحة اليوم الموالي**" (ابن الزيات، أ. 1997: 98) (ابن مريم، أ. 1908: 301). وكان يدعو بالدعاء المأثور للخضر عليه السلام، والّذي ذكره الامام أبو حامد الغزالي في كتابه إحياء علوم الدين، تحت باب الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر، ومنه: "**اللهم كما لطفت في عظمتك دون اللطفاء، وعلوت بعظمتك على العظماء... اجعل لي من كل هم أمسيت فيه فرجا ومخرجا...**" (ابن الزيات، أ. 1997: 100).

وشكى أهل توزر إلى ابن النحوي الضيق وظلم الحاكم، فلجأوا إليه، وطلبوا منه الدعاء، كي يرفع عنهم ظلم الحاكم، والعودة إلى بلده، ففعل وبات الليل قائما، وتضرع لله في تهجده، وما هي إلاّ يسير حتى جاءه كتاب من بلده يرغبونه في العودة والالتحاق بأهله (التنبكتي، أ. 1989: 624).

4.3.1. تصوفه

سلك أبو الفضل طريق التصوف مبكرا، فبدأ بنفسه، فالتزم القيام والصيام والتهجد، والاطلاع على أُمهات الكتب، وبعد تشبعه به، قام بنشر الفكر الصوفي للغزالي في قلعة بني حماد من خلال تدريسه لعلم الكلام في حلقات الدرس بالمدن المرابطية التي نزل بها (ابن مريم، أ. 1908: 303) (الطمار، م. 2010: 203).

ومما يثبت حبه لهذا الفكر، قيامه باستنساخ كتاب الإحياء في ثلاثين جزءا، فإذا دخل شهر رمضان قرأ في كل يوم جزءا، والذي قال فيه: "**وددت أنّي لم أنظر في عمري سواها**" (ابن الزيات، أ. 1997: 96).

وتعرض ابن النحوي للتضييق والضغط، مما أجبره على العودة إلى القلعة الحمادية التي دخلها سنة 494هـ، ليقضي بها بقية حياته، وانكب على التصوف، ولبس الخشن من الثياب وكانت جبته إلى ركبته (الطمار، م. 2010: 203) (ابن مريم، أ. 1908: 303).

5.3.1. وفاته

توفي أبو الفضل ابن النّحوي بقلعة بني حماد سنة 513هـ/1116م (نويهض، ع. 1980: 329) عن عمر ناهز الثمانين سنة (ابن الأبار، أ. 1995: 226/4).

2. تأثير ابن النحوي في الحياة العلمية والسياسية

1.2. التأثير العلمي

1.1.2. التعليم

بعد تمكن أبي الفضل بن النحوي (ت513هـ) من العلوم النقلية، خاصة أصول الدين وأصول الفقه، والإلمام الواسع بعلم الكلام، لجأ إلى ممارسة النشاط التعليمي بالقلعة التي طال مكوثه بها، كونها حاضرة علم،

ودار مُلك بني حماد، مساهما بذلك في بناء دورها الحضاري، وقد تتلمذ عليه أعلام، كابن البذوخ الطبيب، وابن الرمامة...الخ (بن معمر، م. 2013: 294).

وواصل نشاطه التعليمي خارج القلعة، ليتجه إلى الحواضر المرابطية، فكانت البداية من مدينة سجلماسة، الذي اتخذ من مسجدها مكانا لتلقين علمه في شكل حلقات علمية، ورغم ذلك واجه التضييق والتحريج من عبد الله ابن بسام أحد أعيان المدينة، وهذا ما ذكره ابن مريم في كتابه البستان قائلا: فقال ابن بسام: "**ما العلم الذي يقرئه أبو الفضل ؟، فقيل له: أصول الدين وأصول الفقه، فقال: أرى أن هذا أراد أن يدخل علينا علوما لا نعرفها، وأمر بإخراجه من المسجد**" (ابن مريم، أ. 1908: 301).

وبسبب هذه المضايقات أُرغم ابن النحوي على مغادرة سجلماسة، وتوجه إلى حاضرة فاس، كونها مركزا هاما للعلم والمعرفة، وقبلة للعلماء والفقهاء، رغبة منه في نشر العلم، وتكوين الطلبة، وظل يلقن علمه طيلة مكوثه بها، فانتفع به أهلها من العامة والطلبة، ونهلوا من علمه الغزير، ولكن رغم ذلك تعرض مرة أخرى لمضايقة ابن دبوس قاضي المدينة، (ابن مريم، أ. 1908: 301) (ابن الزيات، أ. 1997: 99)، فأجبر على الهجرة منها، والعودة إلى القلعة، وامتهن التدريس فانتفع به العامة والخاصة، وحبب إلى قلوبهم (ابن الزيات، أ. 1997: 100).

وعرف ابن النحوي أنّ العلماء ورثة الأنبياء، والاختلاط بهم كنز، ومصاحبتهم واجبة، حيث يقول الشيخ عبد الرحيم بن عيسى بن ملجوم الفاسي، أنه لما دخل ابن النحوي فاس، لازمه العالم أبو موسى، وحفظ عنه لمع الشيرازي (ابن مريم، أ. 1908: 303).

ومن خلال هذه التنقلات التي صحبتها مضايقات، حاول ابن النحوي أن يُعطي إضافة جديدة بالمغرب الأقصى، تتمثل في العناية والاهتمام بعلم الأصول "**إقراء وتدريسا**"، فوجد معارضة شديدة لهذا التوجه من طرف أعيان الحواضر، بحجة أنّ هذه العلوم غير معروفة عندهم، فأنكروا عليه ذلك، مما يدل على انتشار تيار التقليد عندهم، عكس التطور والاجتهاد الذي دعا إليه ابن النحوي القادم من المغرب الأوسط (بوعقادة، ع. 2015: 359).

وتجدر الإشارة إلى أنّ الفقيه ابن النحوي وجد مناخا ملائما في قلعة بني حماد ودفعا قويا من حكامها لنشر علمه بها، كالأصلين (الفقه والدين) وعلم الكلام، مما دفعه إلى التعمق فيهما وتبسيطهما والعمل بهما، كل هذا أدى إلى تكوين قاعدة فقهية وصوفية (غزالية) صلبة يمثلها الطلاب والمريدون المستوعبون لها (بونابي، ط. 2004: 118)، عكس الحواضر المرابطية التي نزل بها، والتي وجد فيها معارضة قوية، منعته من تدريس علمه، لأن أعيانها حددوا سياسة تعليمية واضحة، والقائمة على تدريس الفروع الفقهية، وكل ذلك يندرج في إطار السياسة العامة التي فرضها الفقهاء على الحكام المرابطين، مارسوا من خلالها نمطا فكريا معينا، ومارسوا رقابة تحدد ما هو جائز فينشر، وما هو ممنوع فيهجن ويبعد (بن معمر، م. 2013: 295).

2.1.2. التأليف

ذكرت المصادر أن لابن النحوي (ت513هـ) مصنفات (مؤلفات) لكن لم تورد عناوينا لها (الذهبي، ش. 2008: 427) (ابن مريم، أ. 1908: 300) (ابن الأبار، أ. 1995: 226/4)، في حين أشارت بعض البحوث أنه ألف بالقلعة كتابا في التفسير سمّاه "**قراضة المجد في تفسير سورة الحمد**"، واشتهر بالقصائد، وهو شعر التوسلات والابتهالات، فأثرى به الأدب المغربي (توفيق، ع. 2013: 196-197)، كما أشار أبو علي صالح الأيلاني في مخطوطه "**رسالة في القبلة**" إلى كتاب لابن النحوي بعنوان "**قبلة أهل المغرب**"، قال إنه كتاب حفيل في فنه، ولكنه بناه على الهندسة، قلّ من يفهمه، ولا يزال الكتاب في حكم المفقود (بن معمر، م. 2013: 302).

واستطاع ابن النحوي التأثير على العامة من خلال الشعر الذي كتبه، وهو كلام كله جزل عويص على الفهم، عسير الافادة، ومن القصائد التي ألفها، يأتي في مقدمتها قصيدة المنفرجة أو الجيمية في مجال التصوف، وهي قصيدة مشهورة، كثيرة الوجود بين الناس، ولا يزالون يتواصون بحفظها، ويتجافون بما حواه معظمها (ابن عبدالملك، أ. 2012: 5/353-354)، وتتكون من خمسة وثلاثين بيتا، خمسّها ابن مالك، وشرحها الشيخ الإمام أبو الحسن علي بن يوسف البصري، وشرحها الشيخ الزاهد عبد الرحمان بن حسن المقابري الشافعي، وسماه الأنوار البهجة في ظهور كنوز المنفرجة، وقد سماها الشيخ تاج الدين السبكي في طبقاته بالفتوح بعد الشدة، وهي مجربة لكشف الكروب والهم (حاجي، خ. 1941: 1346) ولجأ الكثير من العلماء إلى تقديم شروح أخرى عليها (البغدادي، إ. 1955: 551) وجاء في مطلعها:

اشتدي أزمة تنفرجي قد أذن ليلك بالبلج

وظلام الليل له سرج حتّى يغشاه أبو السرج

وسحاب الخير له مطر فاذا جاء الآبان تجي

وفوائد مولانا جمل فاقصد معي ذلك الأرج

فلربما فاض الحيا بحور الموج من اللجج

والخلق جميعا في يده فذو وسعة وذو وحرج (بوريبة، ر. 1977: 171)

ودفع به زهده إلى قيام الليل والتهجد، وكتابة الشعر، ومما قاله في باب الرجاء:

لبست ثوب الرجاء والناس قد رقدوا فقمت أشكو إلى مولاي ما أجد

وقلت يا سيدي يا منتهى أملي يا من عليه بكشف الضر أعتمد

أشكو إليك أمورا أنت تعلمها ما لي على حملها صبر ولا جلد

ومددت يدي بالذل مشتكيا إليك يا خير من مدت إليه يد (ابن مريم، أ. 1908: 303)

ومما نظمه من شعر في تارك الصلاة:

في حكم من ترك الصلاة وحكمه إن لم يقر بها كحكم الكافر

وإذا أقرّ بها وجانب فعلها فالحكم فيه للحسام الباتر

ومن الأئمة من يقول بكفره يقضي له في حكمه بالظاهر

وأبو حنيفة لا يقول بقتله ويقول بالضرب الوجيع الزاجر

هذي روايات الأئمة كلها وأجلُّها ما قلته في الآخر

المسلمون دماؤهم معصومة حتى تراق بمستبين باهر

مثل الزنى والقتل في شرطيهما وانظر إلى ذاك الحديث السائر (ابن عبد الملك، أ. 2012: 354/5)

ومما يدل على علو كعبه في الشعر هو مخاطبة أقرانه العلماء الشعراء، فقام بذم خط أهل الأندلس، والحط من قيمة أبي عمرو ابن عبد البر، فرد عليه أبو العباس أحمد بن محمد بن البراء التجيبي بقصيدتين، أفحم فيهما ابن النحوي (ابن الأبار، أ. 1983: 61-62).

2.2. التأثير السياسي

1.2.2. ابن النحوي وحادثة الاحراق

في سنة 503هـ، أمر الأمير المرابطي علي بن يوسف (هو علي بن يوسف بن تاشفين، تلقب بلقب أبيه أمير المسلمين، فجرى على سنن أبيه في إيثار الجهاد، وإخافة العدو، وحماية البلاد، كان حسن السيرة، جيّد الطوية، نزيه النفس، بعيدا عن الظلم، كان إلى أن يُعدّ في الزهاد والمبتلين أقرب منه إلى أن يعد من الملوك والمتغلبين (المراكشي، ع. 1949: 171)، بإحراق كتاب "**الإحياء**" لأبي حامد الغزالي (ت505هـ) بعد أن استفتى أبا علي بن حمدين قاضي قرطبة وفقهاء الأندلس، فأحرق في رحبة مسجدها بالباب الغربي على هيئته بجلوده بعدما أشبعه زيتا، وحضر هذه الحادثة أعيان الناس (ابن القطان، م. 1990: 70-71)، كما تمّ جمع عدد كبير من نسخ الإحياء بمراكش، والتي أحرقت أيضا (حمدي، ح. 1998: 144)، دون مراعاة ما كان قائما بين الإمام الغزالي وبين يوسف بن تاشفين (هو يوسف بن تاشفين بن ترجوت بن ورتانطن بن منصور بن مصالة ابن أمينة ابن وانمالي الصنهاجي، يكنى بأبي يعقوب، خائفا لربه، كتوما لسرّه، كثير الدعاء والاستخارة، مقبلا على الصلاة، وكان يفضل الفقهاء ويعظم العلماء، ويصرف الأمور إليهم (ابن عذارى، م. 1983: 46/4)، من المودة والمكاتبات التي كانت بينهما (ابن خلدون، ع. 2000: 6/ 250)، والثناء من الغزالي على يوسف، والذي كان على وشك زيارته وهو بالإسكندرية، إلاّ أنّ وفاة يوسف بن تاشفين سلطان

مراكش حالت دون ذلك (الذهبي، ش. 2003: 69)، وأرسل الخليفة علي بن يوسف الفتوى إلى جميع الحواضر، آمرا قضاتها بإحراق الكتاب حيث ما وجد، والتحريج على النّاس والتضييق عليهم، والحلف بالأيمان المغلظة أنّ الإحياء ليس عندهم (ابن القاضي، أ. 1973: 552).

رغم أنّ الفقهاء المتصوفة لم يقتصر دورهم على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في أوساط العامة فقط، بل تعدّاه ليشمل الخاصة بما فيهم الحكام وأصحاب النفوذ (البتيلي، م. 1993: 61)، لذا نجد أبا الفضل ابن النّحوي الذي لم يسعفه الحظ في التقرب من مجلس الأمير المرابطي علي بن يوسف للإشارة عليه وتصويب ما صدر منه، فإنه لم يبق محايدا من الفتوى الّتي أصدرها، ولم يرض بهذا التصرف الصادر عن سلطة فقهية التي استهوتها زخرف الدنيا و زينتها، إذ سرعان ما تدخل ودافع عن كتاب الإحياء وانتصر له، وكتب إلى الأمير المرابطي برسالة يطلب فيها منه التراجع عن قراره، كما أفتى بعدم لزوم تلك الأيمان وأبطل عملية التفتيش، فوجد ابن النحوي نفسه مقحما في خوض غمار السياسة، والصدام مع الحاكم، وتعاطيها في إطار الإصلاح الشامل (سلامه، م. 1985: 327) (مخلوف، م. 2002: 185/1).

ولعل الذي دفع بابن النحوي إلى إصدار هذه الفتوى– والتي لم تشر المصادر إلى فحواها – هو تقريب الأمير المرابطي علي بن يوسف للفقهاء وإيثارهم، واللجوء إلى استشارتهم في جميع أمور المسلمين كبيرها وصغيرها (المراكشي، ع. 1949: 235)، مما جعله يأمل في وصول فتواه إلى مسامع الأمير كي يعمل بها ويصحح ما بدر منه.

إنّ تصرف أبي الفضل بن النّحوي المرتكز على السلاّم فهو لا يعارض السلطة معارضة صريحة، بل يميل إلى معايشتها ومهادنتها في إطار الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وتقديم النصح للحاكم باستغلال نفوذه الرّوحي (بوتشيش، إ. 1993: 131).

وتجدر الإشارة أنّ ابن النحوي لم يكتف بإصدار الفتوى، وكتابة الرسالة إلى السلطان، بل أصدر فتوى أخرى، دافع فيها عن الغزالي، والتي كانت بمثابة رد فعل على خصومه، وهي الفتوى التي جهلتها الكثير من المصادر، إلاّ أنّه عثر على مخطوطة في الخزانة العامة بالرباط، وجاءت هذه الفتوى في شكل جواب من ابن النحوي إلى فقهاء تلمسان، حينما استفسروا عن كتاب الإحياء، ومما جاء فيها: "... **حتى لا تركنوا لمخايّل الباطل العارضة في جهام الجهل على ظلام الظلم، وما جرى به القضاء في كتاب إحياء علوم الدين، فقد سبق به العلم في أول التكوين، ونسأل الله تعالى تدارك العصاة الخاطئين بتوبة تحيي منهم ما أماتته الذنوب، وترد إليهم عازب الرأي حتى تقر بصوابه القلوب، ولهذا الأمر ما بعده، والله لا يخلف وعده...**" (بن معمر، م. 2013: 298).

وأضاف قائلا: "... **وأبو حامد الغزالي على الجملة والتفصيل، صاحب نقطة التحصيل ونكتة التوصيل، محمود المقال والفعال، ممدوح الجواب والسؤال، معروف المقدار في سائر الأقطار، قد أخذت تصانيفه بنواصي العباد، ووطنت دواوينه صياصي البلاد، فتتابع التسليم بها، وتعاضد الاقرار بها، فبأيّ**

مبالاة تقع بمثاله العوام، وثفاية الهوام، الذين لم يصحبوا فريقه، ولم يسلكوا طريقه، ولم يتنقبوا في بلاده، ولا قاربوه في مراده ومراده، ولا قاموا إليه بسلطان، ولا نهضوا نحوه ببرهان، وقد وقعت على أحوالهم الهاجمة..." (بن معمر، م. 2013: 298–299).

وما يلاحظ أن ابن النحوي ناضل بإخلاص ضد أعداء الفكر الجديد، والمنهج الغزالي، وحاول كشف تمويههم للحقيقة، وسكوت أهل العلم والمتصوفة، وخطر هذا السكوت على الحياة الإسلامية.

2.2.2. موقف السلطة المرابطية من فتوى ابن النّحوي

إنّ كتب التراجم والطبقات لم تعطنا صورة واضحة عن رد فعل رسمي من فتوى ابن النحوي في ما يخص قضية الإحراق، غير أنّ هناك شذرات تاريخية بشأن سياسة الدولة المرابطية نحوه، والتي على ما يبدو أنّها اتّبعتها ضد المناهضين لها، وهي سياسة المواجهة القائمة على النفي أو الإبعاد أو السجن وحتى التعذيب أو القتل (بونابي، ط. 2004: 196).

ومن خلال قراءتنا تبين لنا أنّ السلطة المرابطية دخلت في مواجهة مباشرة مع أبي الفضل ابن النحوي، فتمّ إبعاده من المجالس العلمية في كل من حاضرتي سجلماسة وفاس أولا، ثم نفيه خارج حدود الدولة المرابطية ثانيا (ابن مريم، أ. 1908: 300) (ابن الزيات، أ. 1997: 99). معتمدة على الفقهاء كوسيلة للتضييق عليه أينما حلّ وارتحل، لأن العلم الذي يحمله (علم الكلام) ناقد للأوضاع السياسية والعسكرية والاقتصادية والاجتماعية (بونابي، ط. 2004: 197)

ظلت سلطة المرابطين تلاحق وتراقب أبا الفضل ابن النحوي وأمثاله في المجالس العلمية داخل المساجد وغيرها، ليس لتمكنه في علم الأصلين (الدين والفقه)، والنحو والحديث، بل لعلم الكلام (الغزالية) الذي أصبح يشكل خطرا عليها، والحامل بين ثناياه أفكارا تتنافى مع التوجه السياسي والفقهي للمرابطين، ومن هذه الأفكار أن سعيد بن المسيب قال: إذا رأيتم العالم يغشى الأمراء فهو لص، وقال عمر بن الخطاب: "**إذا رأيتم العالم محبا للدنيا فاتهموه على دينكم**" (سلامة، م. 1985: 326)، كما جاء في باب "**إدرارات السلاطين وصلاتهم وما يحل وما يُحرم منها**"، التحريم المطلق للخراج المضروب على المسلمين، وكل المصادرات وأنواع الرشوة (الغزالي، أ. 2005: 589)، وهو ما يتعارض مطلقا مع سياسة المرابطين القائمة على غنائم المعارك والضرائب غير الشرعية كالخراج أو الجزية أو ما يُعرف باقتصاد المغازي، وثالثها تشريع الغزالي قتل الكفار المحاربين، وهو ما يتناقض أيضا مع نظرة الفقهاء والحكام المرابطين الذين استعانوا بالكفار في الجيش (بونابي، ط. 2004: 197).

كل هذه الأفكار وجدت لنفسها مناخا ملائما، والتي رأى فيها الفقهاء أصحاب السلطة والنفوذ التناقض التام مع الواقع، مما جعلهم لا يترددون في مواجهتها، والتصدي لها، ولكل من يحملها أو يتبناها. وعموما فإنّ تّصرف ابن النّحوي غير المقبول في المدن المرابطية، أجبر السلطان على إخراجه وإجباره على العودة إلى المغرب الأوسط، فسكن قلعة بني حماد (نويهض، ع. 1980: 329)، مقتنعا بعدم جدوى مسعاه في ظل

تعنت سياسي وغرور فقهي أصم، كانت له انعكاسات سلبية على شخصيته، وعلى العلم الذي يحمله والتيار الغزالي الذي يمثله ببلاد المغرب، رغم أنّه في بداياته الأولى.

3. التمكن من قلوب العامة

إن نشاط ابن النحوي في المجال العلمي والتأثير في الحياة السياسية، واللذين ساهما في بروز شخصيته الفذة، والمؤثرة في فئات المجتمع، ولا شك أن مجالسه العلمية زادته قربا منهم، واختلاطا بهم، فقصدوه في الأماكن التي نزل بها، للأخذ عنه والتبرك به، ومما زاده حبا وجاها في وسط العامة، هو رفع الجهل عنهم، وتنوير العقول، والتخلق بمبادئ التصوف، كالتواضع والحلم، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، كل ذلك أدى إلى كثرة أتباعه من طلاب ومريدين (ابن مريم، أ. 1908: 303) (ابن الزيات، أ. 1997: 98).

كما أنّ الموقف الشجاع والجريء لابن النحوي، وانتصاره لكتاب الإحياء، هذا الموقف القائم على استعمال العقل والعلم بعيدا عن التزلف، وإخماد الفتنة بين العامة والسلطة منذ البداية، أكسبه احتراما في أوساط العامة وحتّى الخاصة، ورفع منزلته، ومنحه ثقة بالنفس، كما بيّن مدى صفاء السريرة وصدق التوجه، ومن القصص المأثورة ما ذكره ابن مريم في البستان، أن الشيخ الصالح علي ابن حرزهم طلب منه تقبيل يد ابن النحوي ولو صادفه في اليوم مائة مرة (ابن مريم، أ. 1908: 303)، وطلب منه ذات مرة التوجه إليه لكي يسأله الدعاء لصلاحه وبركته، فأتاه وقت المغرب فوجده بالمسجد، فعرّفه بنفسه فدعا له (الجزنائي، ع. 1991: 97) (ابن مريم، أ. 1908: 304).

خاتمة

بعد التطرق إلى شخصية أبو الفضل بن النحوي، وتأثيره العلمي ببلاد المغرب، ومواقفه الجريئة ضد السلطة المرابطية، تمكنا من الوصول إلى مجموعة من النتائج مفادها أنّ العالم الفقيه الصوفي أبا الفضل بن النّحوي:

من أهل العلم والعمل، اكتسب ثقافة علمية واسعة ومتميّزة – في ظل زخم علمي– في العلوم النقلية، خاصة علم الأصول (الفقه والدين)، وإلمامه الواسع بعلم الكلام، والذي يعد في بداياته الأولى، إضافة إلى شخصيته القوية، المتميزة بالحلم، والتواضع، والورع، والصلاح، والزهد.

لم يبخل بعلمه، وقام بنشره بالقلعة والمدن المرابطية التي نزل بها، مثل سجلماسة وفاس، وجعل التعليم بالمساجد وسيلة لتحقيق ذلك، متخذا منها منبرا للوعظ والإرشاد، والدعوة إلى التغيير والإصلاح، آمرا بالمعروف، ناهيا عن المنكر، ورغم أن المصادر لم تبرز لنا مناظراته العلمية، وفحوى مجالسه العلمية، إلا أنه يبدو جليا أنّه ركز جهده على تكوين أجيال تحمل فكره ومنهجه.

رغم نبوغه العلمي، فإنه لم تصلنا مؤلفاته العلمية – حسب ما ذكرته المصادر– في الجانب الذي برع فيه، كعلماء عصره، بينما ترك شعرا صوفيا مميزا (قصائد)، ينم عن حس أدبي قوي، وبلاغة في اللغة، وهو شعر

التوسلات والابتهالات، والمنتشرة في أوساط العامة والخاصة، ومازالت متداولة في وقتنا الحالي عند بعض الطرق الصوفية.

دخوله في صراع سلمي مع الفقهاء والحكام، واعتراضه على فتوى الإحراق، وانتصاره لكتاب الإحياء للإمام أبو حامد الغزالي وتدريسه له في الحواضر المرابطية كفاس وسجلماسة، متبعا لطريق الحق الذي لم يحد عنه، رغم تعرضه للمضايقة والتحريج من السلطة السياسية والفقهية المرابطية، مما جعله يقحم نفسه في مواجهة مباشرة مع السلطة المعرفية من حكام وفقهاء، والّتي تبدو قد دخلت في حرب معلنة ضد المتصوفة، والتي انتصر عليها ابن النحوي بكراماته الصوفية، كما كشف هذا الصراع عن التصدع والانشقاق الموجود داخل السلطة المعرفية في بلاد الغرب الإسلامي، ومدى الخضوع للنزوات عوض نصرة الحق والعمل به. لم يقتصر تأثيره على الجانبين العلمي والسياسي فقط، بل امتد ليشمل الجانب الاجتماعي أيضا، فأثر في العامة، بقوة الشخصية، فاستحوذ على العقول، وملك القلوب.

قائمة المصادر والمراجع

المصادر

1- الأنصاري، أبي عبد الله، (1967م)، **فهرست الرصاع**، تونس، المكتبة العتيقة.

2- ابن الأبار، أبي عبد الله، (1995م)، **التكملة لكتاب الصلة**، لبنان، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع.

3- ابن الأبار، أبي عبد الله، (1983م)، **المقتضب**، القاهرة، دار الكتاب المصري.

4- ابن بشكوال، أبو القاسم خلف، (1989م)، **الصلة**، بيروت، دار الكتاب اللبناني.

5- البكري، أبي عبيد الله، (1992م)، **المسالك والممالك**، لبنان، دار الغرب الإسلامي.

6- البغدادي، اسماعيل باشا، (1995م)، **هدية العارفين – أسماء المؤلفين وآثار المصنفين** –، لبنان، دار إحياء التراث العربي.

7- التنبكتي، أحمد، (2000م)، **كفاية المحتاج لمعرفة من ليس في الديباج**، المملكة المغربية، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية.

8- التنبكتي أحمد، (1989م)، **نيل الابتهاج بتطريز الديباج**، طرابلس، منشورات كلية الدعوة، الإسلامية.

9- الجزنائي، علي، (1991م)، **جنى زهرة الآس في بناء مدينة فاس**، الرباط، المطبعة الملكية.

10- الحميري، محمد، (1974م)، **الروض المعطار في خبر الأقطار**، بيروت، مطبعة هيدلبرغ.

11- ابن خلدون، عبد الرحمان، (2000م)، **العبر وديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر**، لبنان، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع.

12- الدباغ، أبو زيد عبد الرحمان، (1978م)، **معالم الايمان في معرفة أهل القيروان**، تونس، مطبعة الشركة التونسية لفنون الرسم.

13- الذهبي، شمس الدين، (2003م)، **تاريخ الاسلام ووفيات المشاهير والأعلام**، بيروت، دار الغرب الإسلامي.

14- الذهبي، شمس الدين، (2008م)، **المستلمح من كتاب التكملة**، تونس، دار الغرب الاسلامي.

15- الزركلي، خير الدين، 1976م، **الأعلام**، لبنان، دار العلم للملايين.

16- ابن الزيات، أبي يعقوب يوسف، (1997م)، **التشوف إلى رجال التصوف وأخبار أبي العباس السبتي**، الرباط، مطبعة النجاح الجديدة.

17- السيوطي، الحافظ، (1965م)، **بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنّحاة**، دب، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه.

18- ابن عبد الملك، أبي عبد الله، (2012م)، **الذيل والتكملة لكتاب الموصول والصلة**، تونس، دار الغرب الإسلامي.

19- الغزالي، أبي حامد، (2005م)، **إحياء علوم الدين**، لبنان، دار ابن حزم للطباعة والنشر والتوزيع.

20- الفاسي، أبي عبد الله محمد، (2002م)، **المستفاد في مناقب العباد بمدينة فاس وما يليها من البلاد**، الرباط، مطبعة طوب بريس.
21- ابن القاضي، المكناسي، (1973م)، **جذوة الاقتباس في ذكر من حل من الأعلام مدين فاس**، المملكة المغربية، دار المنصور للطباعة والوراقة.
22- القرافي، بدر الدين محمد، (2004م)، **توشيح الديباج وحلية الابتهاج**، القاهرة، مكتبة الثقافة الدينية.
23- ابن القطان، المراكشي، (1990م)، **نظم الجمان لترتيب ما سلف من أخبار الزمان**، لبنان، دار الغرب الإسلامي.
24- ابن قنفد، أبي العباس، (1965م)، **أنس الفقير وعز الحقير**، الرباط، مطبعة آكدال.
25- ابن كثير، أبي الفداء، (2015م)، **البداية والنهاية**، دب، دار ابن كثير للطباعة والنشر والتوزيع.
26- المراكشي، عبد الواحد، (1949م)، **المعجب في تلخيص أخبار المغرب**، القاهرة، مطبعة الاستقامة.
27- المراكشي، ابن عذارى، (1983م)، **البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب**، لبنان، دار الثقافة.
28- ابن مريم، أبي عبد الله محمد، (1908م)، **البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان**، الجزائر، المطبعة الثعالبية.

المراجع

1- البتيلي، محمد بركات، (1993م)، **الزهاد والمتصوفة في بلاد المغرب والأندلس حتى القرن 5هـ**، القاهرة، دار النهضة العربية.
2- بوتشيش ابراهيم القادري، (1993م)، **المغرب والأندلس في عصر المرابطين . المجتمع . الذهنيات . الأولياء**، لبنان، دار الطليعة للطباعة والنشر.
3- بورويبة، رشيد، (1977م)، **الدولة الحمادية- تاريخها وحضارتها-**، الجزائر، ديوان المطبوعات الجامعية.
4- بونابي، الطاهر، (2004م)، **التصوف في الجزائر خلال القرنين 6هـ و7هـ /12م و13م**، عين مليلة، دار الهدى للطباعة والنشر والتوزيع.
5- حاجي خليفة، (1941م)، **كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون**، لبنان، دار إحياء التراث العربي.
6- حمدي، عبد المنعم محمد حسين، (1998م)، **التاريخ السياسي والحضاري للمغرب والأندلس في عهدي المرابطين**، مصر، دار المعرفة الجامعية.
7- سلامة، محمّد سليمان الهرمي، (1985م)، **دولة المرابطين في عهد علي بن يوسف بن تاشفين - دراسة سياسية وحضارية-**، مكة المكرمة، دار الندوة الجديدة.
8- عويس، عبد الحليم، (1991م)، **دولة بني حماد . صفحات رائعة من التاريخ الجزائري**، عين مليلة، مكتبة الاسكندرية.
9- الطمار، محمد، (2010م)، **المغرب الأوسط في ظل صنهاجة**، بن عكنون، ديوان المطبوعات الجامعية.
10- مخلوف، محمد بن عمر بن قاسم، (2002م)، **شجرة النور الزكية**، لبنان، دار الكتب العلمية.
11- نويهض، عادل، (1980م)، **معجم أعلام الجزائر من صدر الإسلام حتى العصر الحاضر**، لبنان، مؤسسة نويهض الثقافية للتأليف والترجمة والنشر.

الأطروحات

1- بوعقادة، عبد القادر، (2015/2014م)، **الحركة الفقهية في المغرب الأوسط ما بين القرنين 7هـ و9هـ/13م و15م**، أطروحة دكتوراه، قسم التاريخ، كلية العلوم الانسانية والاجتماعية، جامعة الجزائر2 أبو القاسم سعد الله، الجزائر.

المقالات

1- توفيق مزاري، عبد الصمد، ديسمبر (2013)، "**جوانب من إسهامات القلعة في الثقافة الإسلامية**"، حوليات الآداب واللغات، جامعة المسيلة، العدد3.
2- بن معمر، معمر، ديسمبر (2013م)، "**أبو الفضل ابن النحوي (433هـ- 513هـ) وانتصاره للإمام الغزالي**"، حوليات الآداب واللغات، جامعة المسيلة، العدد3.